فتح طشقند

تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه الله تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة العربي الكويتية– العدد 285-1 أغسطس 1982م-ص 134 – 137

1402 هـ - 1982 م

فتح طشقند

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

طشقند هي الآن عاصمة جمهورية اوزبكستان السوفيتية ، لكن طشقند التاريخ كان لها شأن آخر . . .

تقع طشقند في اقليم الشاش الذي يقع غربي اقليم فرغانة على ضفة نهر سيحون اليمنى ، اي الضفة الشمالية الشرقية .

والخرائب المعروفة اليوم بطشقند القديمة ، هي موضع المدينة التي سماها العرب المسلمون : الشاش ، وسماها الفرس : (جاج) ، وكان لكثير من اسماء المدن في بلاد ما وراء النهر تسميتان ـ فارسية وتورانية .

وكان يقال لمدينة الشاش ، بنكث او بيكث ، وهي قصبة اقليم الشاش .

ومقدار عرض اقليم الشاش مسيرة يومين في ثلاثة ايام سيرا على الاقدام ، وليس بخراسان وبلاد ما وراء النهر اقليم على مقدار مساحة اقليم الشاش ولاأكثر منابر منه ولا اوفر قرى وعمارة .

واقليم الشاش عموما في ارض سهلة منبسطة ليس في هذه العمارة المتصلة جبل ولا ارض مرتفعة ، وابنيتهم واسعة من طين ، وعامة دورهم يجرى فيها الماء ، وهي كلها مستترة بالخضرة ومن انزه بلاد ما وراء النهر .

وكان على طشقند « الشاش » اسوار كثيرة ، فقد كان لها مدينة داخلة ، لها قلعة تلاصقها ، عليهما سور .

وفي خارج المدينة الداخلة الربض (الضاحية) الداخل ، وعلى هذا الربض سور ، ويليه ايضا الربض الخارج ، وفيه بساتين وحقول كثيرة ، وحول هذا الربض الخارج سور ثالث .

واخيرا السور الكبير ، على غرار ما كان لبخارى ، يحمي الناحية كلها ، فيكون حول طشقند من ناحية الشمال بهيئة نصف دائرة يصل ما بين ضفة نهر الترك في الشرق ونهر سيحون في الغرب .

وفي القلعة دار الامارة والحبس ، وللقلعة ، بابان : احدهما يفضي الى المدينة الداخلة ، والآخر الى الربض الداخل .

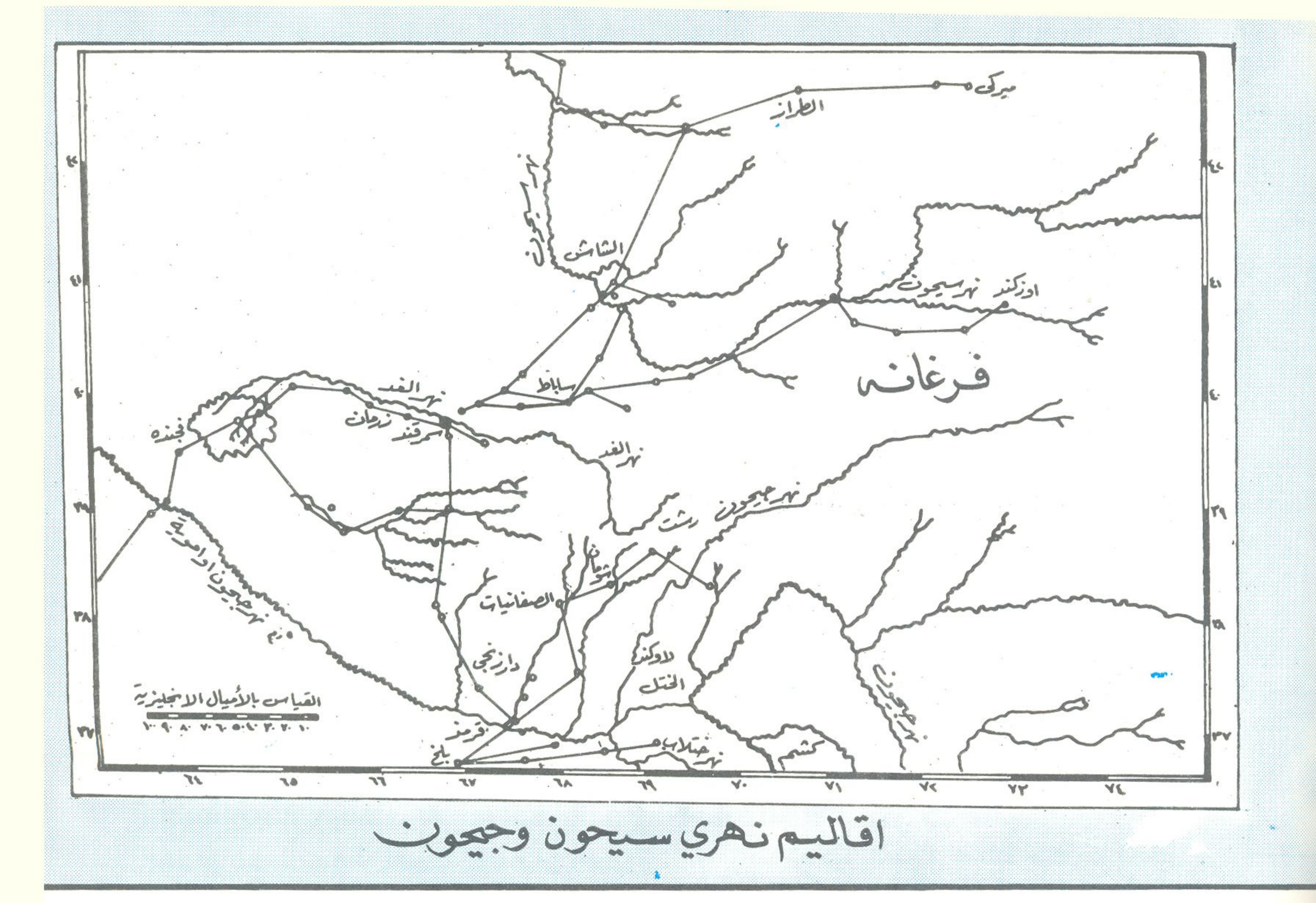
وكان المسجد الجامع على سور القلعة .

والمدينة الداخلة فرسخ في مثله ، وفيها بعض الاسواق ولها ثلاثة ابواب : باب ابي العباس وباب مدينة ركش يفضي الى الجنوب حيث يصل الطريق القادم من سمرقند وباب الجنيد .

وكان للسور الذي يحيط بالربض الداخل عشرة ابواب ، وللسور الذي يحيط بالربض الخارج سبعة ابواب ، وكانت اسواق المدينة في الربض الداخل .

ويشق البلد انهار وقنوات كثيرة ، تسقى البساتين والحدائق في داخل الاسوار ، والمدينة نزهة تكسوها الخضرة والاشجار الباسقة وتغطى ابنيتها ، فكأنها الجنة في خضرتها وكثرة مياهها .

وقد نبغ في طشقند علماء كثيرون ، منهم ابو بكر محمد



اقاليم نهري سيحون وجيحون

بن علي بن اسماعيل القفال الشاشي (٢٩١ هـ - ٣٦٦ هـ) ، رحل عن الشاش طلبا للعلم ، فتفقه وعاد اليها ، وكان اوحد اهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة ، سمع ابا عروبة وابا بكر بن خزيمة ، ومحمد بن جرير الطبري ، وابا بكر الباغندي وابا بكر بن دريد ، روى عنه الحاكم ابو عبد الله وابو عبد الرحمن السلمي .

وينسب الى الشاش ابو الحسن بن الحاجب بن جنيد الشاشي ، احد الرحالين في طلب العلم الى خراسان والعراق والحجاز والجزيرة والشام ، وتوفي بالشاش سنة ٣١٤ هـ . قال ابو الربيع البلخي يصف مناخ الشاش : -

الشاش بالصيف جنة ومن اذى الحر جنة
لكنني يعتريني بها لدى البرد جنة

لقد كانت طشقند حصنا منيعا من حصون الاسلام دينا والعربية لغة ، ولا تزال ، على الرغم من تحملها في سبيل دينها ولغته الاهوال .

التمهيد للفتح

في سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) سار قتيبة بن مسلم الباهلي الى سمرقند ، بعد ان صالح اهل خوارزم وقبض صلحهم .

وكان المجشر بن مزاحم السلمى قد قام الى قتيبة وقال له سرا : « ان اردت الصغد يوما من الدهر ، فالآن . . . فانهم آمنون من ان تأتيهم من عامك هذا ، وانما بينك وبينهم عشرة أيام » .

وكان المسلمون يغزون كل سنة اقليما لفتحه فغزوا تلك السنة خوارزم ، فكان عليهم ان يعودوا الى مرو عاصمتهم في خراسان ، قبل حلول موسم البرد القارس في تلك الاصقاع ذات البرد الشديد .

والصغد او السغد ، هو الاقليم الذي يضم سمرقند وبخارى ، كما يطلق على القوم الذين يعيشون فيه : الصغد او السغد ايضا ، وهذا الاقليم هو تركستان الغربية الذي اصبح بحوزة الاتحاد السوفياتي .

وقال قتيبة للمجشر : « اشار بهذا عليك احد ؟ » قال « لا » قال : « فاعلمته احدا ؟» قال « لا » فقال قتيبة : « والله لئن تكلم به احد ، لاضربن عنقك » .

ومن الواضح ان قتيبة قصد ان يلتزم الكتمان الشديد في عمليته ، ليباغت اهل الصغد بها مباغتة كاملة بالزمان ، فيشل حركتهم ، ويضمن النصر لعمليته .

ولما اصبح الغد ، دعا قتيبة اخاه عبد الرحمن بن مسلم ، وامره ان يتحرك بالفرسان والرماة باتجاه مرو ، ويستصحب معه اثقال الجيش ، فمضى عبد الرحمن ، وتقدم الاثقال ، وسار يوما كاملا ، فلما امسى ، كتب اليه قتيبة : « اذا اصبحت فوجه الاثقال الى مرو ، وسر بالفرسان والرماة نحو الصغد ، واكتم الاخبار ، فاني بالاثر » .

وبلغ قتيبة الصغد بعد عبد الرحمن بثلاثة ايام أواربعة ، وقدم معه اهل خوارزم وبخارى ، فحصرهم شهرا ، وقاتلهم في حصارهم من وجه واحد في سمرقند .

وكتب اهل الصغد الى ملك اقليم الشاش (اقليم طشقند) واقليم فرغانة : « ان العرب ان ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما اتونا ، فانظروا لانفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة ، فابذلوها » .

واستقر رأى ملكي الشاش وفرغانة على امداد اهل الصغد ، فأرسلا اليهم : « ابعثوا من يشغلهم ، حتى نبيت عسكرهم » .

وانتخب ملكا الشاش وفرغانة من اولاد الملوك واهل النجدة من ابناء المرازبة والاساورة والابطال ، وامروهم ان يأتوا عسكر قتيبة ويبيتوه ، لانه مشغول عنهم بحصار سمرقند .

وبلغ قتيبة الخبر ، فاختار من عسكره اربعمائة مجاهد ، وقيل : ستمائة مجاهد ، من اهل النجدة والشجاعة والايام ، واعلمهم الخبر ، وامرهم بالمسير الى عدوهم ، وسارت هذه المفرزة المؤلفة من المغاوير المسلمين ، عليهم صالح بن مسلم اخو قتيبة ، ونزلوا على فرسخين من العسكر على طريق اهل الشاش وفرغانة ، الذين قدموا خفافا لنجدة اهل سمرقند والصغد .

وارسل صالح عيونه وارصاده ، فاخبروه ان العدو سيصل اليه ليلا ، ففرق خيله ثلاث فرق ، كل فرقة منها جعلها كمينا ، فجعل كميناً في موضعين ، بالقرب من الطريق واقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق .

وطرقهم العدو ليلا ، وهم لا يعلمون بمكان صالح ورجاله وكانوا آمنين في انفسهم من ان يلقاهم احد دون معسكر قتيبة حول سمرقد ، فلم يعلموا بصالح ومن معه من مغاوير المسلمين في كمائنهم حتى غشوهم ، فشدوا على كمين صالح ، حتى اذا اختلفت الرماح بينهم ، خرج الكمينان الآخران ، فقاتلوا العدو وطوقوه ، قال احد رجال صالح : « انا لنقاتلهم اذ رأيت تحت الليل قتيبة ، وقد جاء سرا ، فضربت ضربة اعجبتني ، فقلت ، كيف ترى بامي وابي ؟ فقال : اسكت فض الله فاك » .

واستطاع فرسان صالح التغلب على عدوهم ، فلم يفلت منهم الا الشريد ، واسروا بعض الاسرى ، وغنموا خيلهم وسلاحهم .

وعلم الصغد في سمرقند باندحار اهل الشاش وفرغانة الذين جاءوا لنجدتهم ، فاثر ذلك في معنوياتهم اسوأ الاثر ، وانهارت معنويات الصغد .

وبعد قتال عنيف ، صالح قتيبة اهل سمرقند ، وفتحها صلحا .

لم يكن فتح اقليم الصغد وتطهيره من المقاومة المعادية ، وهو اقوى اقاليم بلاد ما وراء النهر واحصنها واغناها واخصبها واكثرها سكانا ، الا تمهيدا لفتح بقية اقاليم بلاد ما وراء النهر ، ومنها اقليم الشاش .

وليس قتيبة من اولئك القادة الذين يسكتون على تكرار مهاجمة اهل الشاش لجيشه مددا لاهل الصغد ولغيرهم ، فكان لا بد من فتح بلادهم واسكات مقاومتهم المتجددة في كل فرصة سانحة ، وضم بلادهم الى الدولة الاسلامية .

ومضى شتاء سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، وجاء ربيع سنة اربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) فقضى الشتاء واوائل الربيع في الاستعداد لغزو فرغانة والشاش .

وفي اواخر ربيع سنة اربع وتسعين الهجرية واوائل صيفها ، قطع قتيبة نهر جيحون ، وفرض على اهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين الف مقاتل فقطع قتيبة النهر (نهر جيحون) وسار الى الفتح .

ووجه اهل بخارى وكش ونسف الى اقليم الشاش وتوجه هو الى اقليم فرغانة في وقت واحد ليحول دون تعاون اهل الاقليمين في صد الفاتحين .

واصطدم قتيبة بالعدو في خجندة حيث جمع له اهلها ، فلقوه واقتتلوا مرارا ، وفي كل مرة يكون الظفر فيها للمسلمين .

وفتح الجند الذين ساروا الى اقليم الشاش هذا الاقليم ، كما فتحوا مدينة الشاش واحرقوها ، لانها قاومت بعناد ، ثم رجعوا الى قتيبة بالفتح والغنائم .

وعاد قتيبة بالناس الى مرو ، ليقضي فيها الشتاء ، وليعد رجاله لفتح جديد .

وبعث الحجاج بن يوسف الثقفي امير العراقين سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) جيشا من العراق ، فغزا بهم قتيبة الشاش من جديد : فلما كان بالشاش اتاه موت الحجاج فغمه ذلك كثيرا ، لان الحجاج هو الذي ولاه خراسان ، وكانت الثقة بينهما متبادلة الى ابعد الحدود ، فقفل قتيبة راجعا بجيشه الى مرو .

وتفرق الناس ، فخلف في بخارى قوما ، ووجه آخرين الى كش ونسف ، وفي مرو اتاه كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك : (قد عرف امير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد اعداء المسلمين ، وامير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك ، فاتم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغب عن امير المؤمنين كتبك حتى كأني انظر الى بلادك والثغر الذي انت فيه) .

وحينذاك اطمأن قتيبة الى ان الوليد لن يعزله عن خراسان فاستأنف مغازيه الرائعة ، واستماد انتصاراته المجيدة ، فما كانت فتوح قتيبة في كثافتها وتلاحقها كسائر الفتوح بل كانت في سرعتها ، وكثرتها كالطوفان الجارف والتيار الهادر .

دروس الفتح

اهم فوائد التاريخ ، استخلاص الدروس والعبر من دراسته ، التي تفيد الامة في حاضرها ومستقبلها ، ومعرفة الماضي هي وحدها تطوع لنا تصور المستقبل وتوجه الجهود الى الغاية الجديرة بتراثنا العربي الاسلامي العريق .

ان الماضي والحاضر والمستقبل ، وحدة لا سبيل الى انفصامها ، ومعرفة الماضي هي الوسيلة لتشخيص الحاضر ولمعرفة المستقبل .

وأول هذه الدروس هو « الكتمان » ، فقد كان في نية قتيبة ان يغزو اقليم الصغد هذه السنة ، والتوجه اليه في وقت لا يتوقعه اهله ، فلما اقترح عليه المجشر ان يتوجه الى الصغد هذه السنة ولا يؤجل التوجه اليه الى السنة القادمة ، استجوبه قتيبة ليطمئن الى انه لم يطلع احدا على اقتراحه ، وهدده بالموت ان هو افشى الى غيره هذا السر الخطير .

ولم يكتف قتيبة بذلك ، بل وجه اخاه عبد الرحمن بالفرسان والرماة والاثقال باتجاه مرو ، وهو الاتجاه المعاكس للصغد ، ليظهر للعدو والصديق انه يريد العودة الى عاصمته ولا يريد فتح الصغد هذه السنة ، فلما اطمأن الى انه شوش الاخبار على العدو بخاصة ، امر اخاه بالاتجاه الى الصغد ، بالفرسان والرماة ، وتوجيه الاثقال الى مرو ، وهي التي لا لزوم لها في ميدان القتال ، لتبقى القوة الاسلامية الضاربة خفيفة الحركة سريعة التقدم نحو هدفها .

والكتمان من المصطلحات العسكرية معناه : اخفاء المعلومات العسكرية عن العدو والصديق ، وعدم افشاء الاسرار العسكرية ، مهمة كانت ام تافهة ، لان افشاءها الى الصديق ، قد يؤدي الى تسربها الى العدو بشكل او بآخر .

وما اروع الدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام فقد كان اذا اراد غزوة ورى بغيرها وفي غزوة فتح مكة ، كتم نيته عن كل احد ، فدخل ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى ابنته عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تهيىء جهاز النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : « اى بنية ، امركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تجهزوه ؟ » ، قالت « نعم ، فتجهز » قال : « فاين ترينه يريد ؟ » قالت : « والله لا ادرى » .

وليس من المعقول ، ولا من المنطق ، ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يثق باقرب المقربين اليه : زوجه عائشة وابيها ابي بكر رضي الله عنهما ، ولكنه اراد ان يعلم امته درسا في الكتمان .

والدرس الثاني الذي ينبغي ان نتعلمه ، هو المباغتة التي هي اهم مبدأ من مبادىء الحرب على الاطلاق كما هو معروف .

فقد باغت قتيبة اهل الصغد بالزمان ، اذ لم يكونوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم خلال تلك السنة ، ولكن قتيبة سار اليهم في زمان لا يتوقعونه ، فما كان امامهم الا الاستسلام .

وباغت قتيبة اهل الشاش وفرغانه الذين جاءوا مددا للصغد ، بارسال قوة مختارة من فرسانه ، كمنت لهم في الطريق وحوله ، فضربهم ضربة قاضية في وقت لا يتوقعونه وفي مكان لا يتوقعونه ، وباسلوب قتالي لا يتوقعونه ، فشل ارادة عدوه على القتال شللا كاملا وألحق بهم خسارة فادحة بالارواح ، فلم ينج من المدد الذي قدم لمساندة الصغد الا الشريد لان قتيبة باغتهم بالزمان والمكان والاسلوب .

ولم تكن هذه المباغتة الكاملة لتتم كما ينبغي ، لو لم يحرص قتيبة على الاطلاع على نيات اهل الشاش وفرغانه في التقدم نحوه مددا للصغد ، ويعرف الطريق الذي سلكوه وتعداد القوات المعادية المتقدمة ، وموعد وصول تلك القوات الى معسكر المسلمين ، فنظم قتيبة الخطة المناسبة لاحباط الخطة المعادية ، وصد قواتهم عن تحقيق هدفهم في مساندة الصغد .

والدرس الثالث الذي ينبغي ان نتعلمه ، هو حضور قتيبة بنفسه الى مسرح القتال ، مستفيدا من ظلام الليل البهيم ، ليطلع بنفسه على سير القتال ، ويتخذ التدابير المناسبة الفورية لاحراز النصر في تلك المعركة الجانبية التي تؤثر في سير القتال كله ، دون انتظار وصول الموقف اليه في مقره الرئيس في الخلف ، ليصدر القرار اللازم ، بعد ذهاب وقت الانتظار سدى ، مما يؤدى الى ضياع الوقت الثمين دون مسوغ .

لقد كان قتيبة من اولئك القادة الذين يقودون رجالهم من الامام ، يقول لهم : « اتبعوني » ولا يقودهم من الخلف ، يقول لهم « تقدموا » وهو قابع في موضع امين .

وكان قتيبة يستأثر بالخطر ، يؤثر رجاله بالامان ، لذلك نال ثقتهم الكاملة ، ورفع معنويات قواته ، وقادهم من نصر الى نصر .

تلك هي الدروس الثلاثة التي ينبغي ان نتعلمها من قيادة قتيبة النادرة وما اعظمها من دروس ، وما احرانا عربا ومسلمين ان نتعلمها ونضعها دوما نصب اعيننا ، فقد كثرت هزائمنا ونكساتنا ، باهمالنا وبما جنت ايدينا ، وما اصدق المثل العربي القديم : « اذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له » . ■■

بغداد ـ محمود شيت خطاب